مثل الابن الشاطر (ص117)

(لوقا 15 : 11-32)

كانَ لِرَجُلٍ إبنان. فقالَ أصغرُهما لأبيهِ: " يا أبتِ, أعْطِني النّصيبَ الذي يَعودُ عليَّ مِنَ المال." فقسَمَ مالَهُ بينَهما. وبعدَ بِضعَةِ أيّامٍ جَمَعَ الابنُ الأصغرُ كُلَّ شيءٍ له,

وسافَرَ إلى بلَدٍ بعيد, فبدَّدَ مالَهُ هُناكَ في عِيشَةِ التبذير. فلمّا أنفقَ كُلَّ شيءٍ أصابتْ ذلك البلَدَ مجاعةٌ شديدة, فأخذَ يشكو العَوَز. ثُمَّ ذهَبَ فالتحقَ بِرَجُلٍ مِنْ أهلِ ذلك البلد, فأرسَلَهُ إلى حقولِهِ يَرعَى الخنازير.

وكانَ يشتَهي أنْ يملأَ بطنَهُ مِنَ الخُرنوبِ الذي كانتِ الخنازيرُ تأكُلُهُ, فلا يُعطيهِ أحَد. فرَجَعَ إلى نفسِهِ وقال: " كَمْ أجيرٍ لأبي يفضُلُ عَنهُ الخُبزُ وأنا أهلِكُ هنا جُوعاً. أقُومُ وأمضي إلى أبي فأقُولُ لَهُ: يا أبَتِ إنّي خَطِئتُ إلى السَماءِ وإليك. ولَسْتُ أهلاً بعدَ ذلك لأنْ أُدْعَى لكَ ابناً, فاجعَلْني كأحَدِ أجرائكَ ".

فَقامَ ومضَى إلى أبيهِ. وكانَ لَمْ يَزَلْ بَعيداً إذْ رآهُ أبوهُ, فتحرَّكَتْ أحشاؤهُ وأسرعَ فألقَى بِنفسِهِ على عُنُقِهِ وقَبَّلَهُ طَويلاً. فَقالَ لَهُ الإبنُ:

"يا أبَتِ إنّي خَطِئتُ إلى السَماءِ وإليك. ولَسْتُ أهلاً بعدَ ذلك لأنْ أُدْعَى لكَ ابناً." فقالَ الأبُ لِخَدَمِهِ: " أسرِعوا فأتوا بأفخَرِ حُلَّةٍ وألبِسُوهُ, واجعلوا في إصبَعِهِ خاتَماً، وفي رِجلَيْهِ حِذاءً. وأتوا بالعِجلِ المُسَمَّنِ واذبحوهُ فَنَأكلَ ونتنعَّمَ لأنَّ ابني هذا كانَ مَيْتاً فعاش، وكان ضالاً فَوُجِد." فأخَذوا يفرَحون.

وكانَ ابنُهُ الأكبرُ في الحَقل. فلمّا رَجَعَ واقتَرَبَ مِنَ الدار سَمِعَ غِناءً ورقصاً. فدعا أحَدَ الخَدَمِ واسْتَخْبَرَ ما عَسى أنْ يكونَ ذلِكَ. فقالَ لَهُ: " قَدِمَ أخوكَ فذبحَ أبوكَ العِجلَ المُسمَّنَ لأنَّهُ لَقِيَهُ سالِماً." فغَضِبَ وأبى أنْ يدخُل. فخرَجَ إليهِ أبوهُ يسألُهُ أنْ يدخُل. فأجابَ أباهُ: " ها إنّي أخدُمُكَ منذُ سنينَ طِوال, وما عَصَيْتُ لَكَ أمراً قط. فما أعطيتَني جَدْياً واحداً لأتَنَعَّمَ بِهِ مَعَ أصدِقائي. ولمّا رَجَعَ إبنُكَ هذا الذي أكلَ مالَكَ مَعَ البَغايا ذبحتَ لَهُ العِجلَ المُسمَّنَ ".

فقالَ لَهُ: " أنتَ مَعي دائماً أبداً, وجَميعُ ما هو لي فهوَ لَكَ. ولَكِن قد وَجَبَ أنْ نتنَعَّمَ ونفرَح لأنَّ أخاكَ هذا كانَ مَيْتاً فعاش, وكانَ ضالاً فَوُجِد." (لوقا 15/11-32)

الفكرة الأساسيَّة الواردة في هذا المثل

إنَّ الفكرة الأساسيَّة الواردة في هذا المثل هي أنّ الإنسان الخاطئ يتوهَّم أنَّه إذا استسلم إلى الخطيئة وجد السعادة التي يتوق إليها, ولكنَّه لا يلبث أنْ يذوق مرارة الخطيئة التي أبعدته عن الله مصدر سعادته الحقَّة.

فإذا نَدِمَ على سوء تصرُّفه وعاد إلى الله تائِباً غفر له الله خطيئَتَه مهما اشتدَّت شناعتُها. فعلى المسيحيين أن يتوبوا من ذنوبهم كالابن الأصغر، ويقتدوا بالله الغَفور، ولا يستسلموا كالابن الأكبر إلى كبريائهم وحقدهم، بل يتعاملوا بعضهم مع بعض بحنانٍ وتفهُّمٍ ومحبَّةٍ أخويَّة.

إنَّ هذا المثل هو من أجمل الأمثال التي ضربها يسوع وتحدَّث فيها عن علاقة الله بالإنسان الخاطئ، وعن علاقة الإنسان بأخيه الإنسان. إنَّ فيه ثلاث شخصيَّات هي الابن الأصغر، والأب، والابن الأكبر. وإليكم إيضاح هذه الفكرة.

الابن الأصغر

الابن الأصغر شابٌّ طائش. لقد ظنَّ أنَّه يجِد في الاستقلال عن سلطة أبيه الوالديَّة السعادة الكاملة التي يتوق إليها. ولكنَّه لم يجد إلاَّ الذلَّ والفقر والحرمان .

إنَّه في الواقع قد أساء استعمال حُريَّته الشخصيَّة إساءةً بعيدة المدى. ولكنَّ تفكيره السليم الهادئ في سوء حالته حمله على العودة إلى أبيه تائِباً مُستغفِراً. فأضحى بذلك قدوةً للمسيحيين الخطأة الذين يتوهَّمون أنَّهم، بارتكاب الخطيئة، يتحرَّرون من سلطة الله أبيهم، ويجدون الهناء وسعادة القلب. ولكنَّهم لا يلاقون في الخطيئة إلاَّ الفقر الروحي، وعبوديّة إبليس والحرمان من صداقة الله ومحبَّته.

فإذا عمدوا إلى التفكير الهادئ والتأمُّل في سوء حالتهم الروحيَّة ندِموا على ما ارتكبوه من المآثِم، واغتنموا المناسبات الدينيَّة الكبرى، كأيَّام الصيام والأعياد وعادوا إلى الله مستغفرين، فنالوا مغفِرة ذنوبهم وعاشوا في صداقة الله عيشة السعادة.

الأب

إنَّ الأب رجلٌ حكيمٌ حنونٌ غفور. لقد فرِح بعودةِ ابنه الضال فرحاً عظيماً، فغفر له سوء سلوكه، وأعاده إلى منزلته البَنَويَّة، من دون أيِّ تردُّدٍ أو عِتاب .

إنَّه يمثِّل الله الحكيم الحنون الغفور الذي يقبل توبة الخاطئ بفرحٍ عظيم. إنَّ في قلبه حناناً أعمق بما لا يُقاس من حنان أحنِّ الآباء. فلن نرى على الأرض أباً يبدي نحو ابنه العاصي حناناً كحنان الله على أبنائِه الخطأة، ومغفرةً لهم كمغفرة الله عند توبتهم وعودتهم إليه نادمين.

إنَّ الهدف الأكبر الذي توخَّى المثل إصابته هو أن يُظهِر لنا أنَّ الله أبٌ حنون يعطف علينا، ويغفر لنا، ويُحِبُّنا حتى وإنْ أسأنا استعمال حُرِّيتنا، وابتعدنا عنه بارتكاب الخطيئة. وهذا ما ينشئ فينا الثقةَ الكاملة بحُبِّه وحنانه، والرَّغبةَ في البقاء بقربه الوالدي، في البيت الأبوي، والتصميمَ على العودة إليه إذا ما ابتعدنا عنه بالاستسلام إلى المعصية.

الابن الأكبر

1. إنَّ الابن الأكبر شابٌ نشيط وجادّ ولكنّه حقودٌ ومتكبِّر. لقد اطّلع بانزعاجٍ شديد على خبر عودة أخيه. فعدَّد لأبيه أعماله وخدماته بالتفصيل, وعاتبه عتاباً قويّاً, وألحَّ على ذكر ذنوب أخيه القبيحة, ورفض أن يدخل الدار ويسلِّم عليه تحت تأثير حقده وكبريائِه ورغبته في الانتقام منه. لقد أبدى الأب نحو ابنه الأكبر تنازلاً رائِعاً عندما أخذ يتوسّل إليه.

وعمِل كلَّ ما في وسعه ليُحرِّك في قلبه عاطفة الأخوّة ويجعله يشعر بحلاوة المحبَّة التي يجب أنْ تقوم بين الإخوة الأشقَّاء. ولا نعرف ما إذا كان كلام الأب قد أثّر في قلبه المتحجِّر.

2. إنَّ هذا الابن الأكبر يمثِّل بعض المسيحيين المتكبِّرين الذين يدَّعون التقوى والسيرة الحميدة, ولكنَّهم يستسلمون في قلوبهم إلى الحقد والكبرياء والتعالي والرغبة في الانتقام, ويحتقرون الآخرين, ويتململون في أنفسهم لأنَّهم يعتقدون أنَّ الله لا يُكافئهم على صلاحهم وحسن سيرتهم المكافأة التي يستحقُّونها, ويستغربون كلَّ الاستغراب أنَّه يغفِر للخطأة والفُجَّار خطاياهم ويغمرهم بنِعَمٍ غزيرة لا تليق بسلوكهم الخاطئ.

3. إنَّ الله يعرف ما في قلوب الناس من ميول شرّيرة ومن عواطف الحسد والتشفّي والمنافسة الشديدة التي تدفعهم إلى أن ينتقمَ بعضُهم من بعض لأقلّ هفوةٍ تصدر عنهم. فإنَّ هذه العواطف القبيحة التي تتأجّج في صدورهم مظهرٌ من مظاهر ضَعف الطبيعة البشريَّة الميَّالة إلى الشرّ بسبب تأثير الخطيئة الأولى التي ورثنا نتائجها الوخيمة من سقطة أبوينا الأوَّلَيْن.

ولذلك فإنَّ الله يبقى أباً غفوراً حنوناً على الجميع لا يرفض أحداً من البشر, بل يغمر الناس كلّهم بعطفه, ويغفِر لهم زلّاتهم عندما يعودون إليه تائبين .

1. الخطيئة: مفهومها ونتائجها (لو 15 : 13-17)

في ضوء مثل الإبن الشاطر، ندرك أنّ جوهر الخطيئة هو الإنشطار: الإنسان يكسر علاقة الشركة مع الله والكنيسة ويتعلّق بالخيرات، كبيرة أم صغيرة، التي منحه إيّاها الله لكي يعرفه أكثر، ويحبّه أكثر، ويخدمه من خلال عطاياه. وبسبب الإبتعاد عن الله والكنيسة يفتقر هذا الإنسان من القيم الروحية والأخلاقية، ويفقد سعادته وكرامته، ويصل إلى درجة الإنحطاط الروحي والإجتماعي. يسقط الإنسان في الخطيئة منغلباً للتجربة، عندما يغيب عن باله أو عندما يستغيب حضور الله الذي يخاطبه بكلامه الهادي من خلال ضميره، وهو صوت الله في أعماق الإنسان. هذا ما يحصل عندما ينقطع واحد منا عن الشركة مع الله والإتحاد به، بتعطيل الصلاة وسماع كلام الله وقراءة الإنجيل وتعليم الكنيسة، وبعدم الممارسة الدينية يوم الأحد وممارسة سرّ التوبة.

كسرُ الشركة مع الله، يتبعها حتماً كسرها مع الكنيسة التي هي الأداة والعلامة للإتحاد بالله والوحدة بين الناس. في المثل الإنجيلي الكنيسة متمثّلة بالعائلة، التي كانت في حزن شديد بسبب غياب الإبن. ولما رجع إلى أبيه كانت البهجة وكان العيد في العائلة، لأنّ "الإبن كان ميتاً فعاش، وضالًا فوُجد". إنّ ممارسة "التوبة الجماعية" تدلّ إلى أنّ الخطيئة هي في آنٍ ضدّ الله وضدّ الكنيسة، وأنّ توبتي هي في آنٍ مصالحة مع الله ومع الكنيسة.

1. التوبة وعناصرها (لو15: 17-20)

لأنّ الخطيئة هي خروج من دائرة الله، بمعنى عدم سماع كلامه وتعليمه وصمّ الأذن عن سماع صوت الكنيسة، فأوّل عنصر من عناصر التوبة هو **وقفة وجدانية مع الذات**، مع الضمير الذي هو صوت الله في أعماق الإنسان؛ هذه الوقفة هي بحدّ ذاتها عودة إلى الله، إلى نقطة الإنطلاق: **"كم أجير في بيت أبي يفضل الخبزعنهم وأنا أموت جوعاً!"**

هذه الوقفة الوجدانية، التي يعود بها الخاطئ إلى الله، تكشف خطيئته، فيندم عليها. **الندامة** هي العنصر الثاني الأساسي. إنها إقتناع داخلي بحالة الخطأ. ينبغي أن أصل إلى حالة شخصية أدرك بها أنّي مُخطئ، بل أدين نفسي وأقيّم واقعي الحالي في ضوء حالتي الأساسية الأولى التي خسرتها. هذا هو معنى كلمة الإبن: "كم أجير في بيت أبي..."، بكل أبعادها. من دون ندامة، لا توبة ولا إصلاح فينتشر الفساد، وتصبح خطيئتي الشخصية وخطايا غيري التي لا نندم عليها، **خطيئة اجتماعية**، وصرنا نعيش في هيكلية خطيئة. البابا يوحنا بولس الثاني: التوبة والمصالحة).

بنتيجة هذا الادراك، يأتي **قرار التغيير**، وهو العنصر الثالث من عناصر التوبة. **"سأقوم وأمضي إلى أبي"**. ما يعني وضع حدّ لحالتي الشاذّة، الخروج من أسباب الخطيئة، العودة إلى الحالة الأولى، استعادة الشركة مع الله التي كسرتُها بخطيئتي. كما أنَّ بداية الخطيئة كانت كسر الشركة مع الله: "أخذ الابن حصته من مال ابيه وسافر إلى بلد بعيد"، كذلك بداية التوبة "كسر الشركة" مع أسباب الخطيئة. قرار التغيير يقتضي **تنفيذه**، وهو العنصر الرابع: **"قام ورجع إلى أبيه"**. تنفيذ قرار التغيير بالعودة يحتوي على عنصر خامس هو **الإقرار بالخطيئة:** "يا أبتِ، قد خطئتُ إلى السماء وإليك". هذا هو الاعتراف الشخصي بخطاياي إلى الله بواسطة الكاهن، المكلّف بسلطان إلهي، ليسمع توبة الخاطئ، ويُسمعه الغفران من الله: "أنا بالسلطان المُعطى لي، أحلّك من جميع خطاياك". الاعتراف للكاهن بخطيئتي ضروري لأنال الغفران: ضروري لكي أعرف حقيقة خطاياي واحدةً واحدة، فإذا لم أعرفها لا أستطيع الندامة عليها؛ ضروري لأنَّ الحلّ من الخطيئة ومغفرتها يقتضيان الإقرار بها، فلا يُمحى شيء بالغفران إذا كان مجهولاً. لكي أعرف خطاياي على حقيقتها، ينبغي أن أسلّط على حياتي وأفعالي وتصرفاتي أنوار وصايا الله ووصايا الكنيسة، وكلام الرب في الإنجيل وتعليم الكنيسة.

لأنَّ الخطيئة شرٌّ تجاه الله والانسان والكنيسة، فإنَّ العدالة تقتضي **التعويض والتكفير**، وهما العنصر السادس والأخير: **"لستُ أهلاً لأن أُدعى لك إبناً، بل عاملني كأحد أجرائك"**.المسيح ابن الله المتجسِّد عوَّض عن كلِّ إنسان، وكفّر عن خطايا البشرية جمعاء، عندما حمل خطايانا ومات عنّا على الصليب، وما زال يُعوِّض ويكفِّر عن كل واحد منّا في ذبيحة القداس كلَّ يوم. قداس الأحد دعوة لكلّ جماعة الرعية لتأتي وتشارك في هذا التعويض والتكفير. لا غفران من دون عدالة.

الصوم الكبير، بما يحمل من أصوام وإماتات، وأعمال رحمة ومحبة ومصالحات، مناسبة لكل واحد لكي يُعوِّض ويكفِّر عن خطاياه الشخصية وخطايا غيره. لكنّنا بحاجة دائمة إلى التعويض عن خطايانا تجاه الله والانسان والكنيسة. التعويض والتكفير هما علامة التوبة الحقيقية.

3. المصالحة وثمارها (لو: 15: 20-24)

الله في حالة انتظار محب لعودة الخاطئ: **"فيما كان بعيداً رآه أبوه، فتحنَّن عليه"**. ما يعني أن الله هو الذي يُحرِّك قلب الخاطئ ليعود إليه ويتوب. هذا ما قاله القديس اغوسطينوس عن توبته: "يا ربّ، أنت في داخل نفسي، وأنا في خارجها. أنت حرَّكت قلبي لأعود إليك. كنتَ قريباً منّي، أكثر مما كنت انا قريباً من نفسي".

ثم "**أسرع فألقى بنفسه على عنقه وقبّله طويلاً**. إنها قبلة الغفران التي لم تترك مجالاً للإبن لكي يتلفّظ بكلمات التعويض والتكفير. فمحبة الآب لا تريد أن تفرض أمراً آخر غير المحبة على هذا الابن العائد. في الواقع، أعاد الآب لابنه بنوّته الكاملة وبهاءها ومكوّناتها المتمثّلة بثلاثة:

الحلّة الفاخرة ترمز إلى ثوب النعمة الذي لبسناه يوم المعمودية، إنساناً جديداً.

الخاتم في يده يرمز إلى إعادة الشركة مع الله والكنيسة بالمسيح، وإلى المشاركة في ملوكيته.

الحذاء في رجليه يرمز إلى الطريق الجديد الذي يسلكه التائب بعد المصالحة، برؤية جديدة ومسلك جديد، بدلاً من الطريق القديم. إنَّ الشركة مع الله تُعيد الشركة مع الكنيسة، وهذا متمثّل **بسرّ القربان**، بقداس الأحد، وبجلوس الجماعة المؤمنة المتصالحة إلى مائدة عرس الحمل، وتناول وليمة المحبة، جسد الرب ودمه. هذا ما يرمز إليه "**ذبح العجل المسمّن والسرور والفرح**" الذي جمع العائلة كلها.

<u>**التطبيق العملي**</u>

1. **إذا جرّتك التجربة إلى سوء استعمال حُريَّتِك ودفعتك إلى ارتكاب الخطيئة فلا تُهمل التوبة, بل عُدْ إلى نفسِك بالتفكير والتأمُّل في حالتك الروحيَّة البائِسة. وكُنْ على يقين أنَّ الخطيئة أعظمُ شرٍّ يهدِّدُ سعادتك في الدنيا والآخرة.**
2. **ولا تيأسْ أبداً مِنْ رحمة الله وحنانه ومغفرته. لقد اطَّلعت من المثل الذي ضربه يسوع على اتِّساع قلب الأب الذي قَبِلَ عودة ابنه الطائِش بالحُبِّ والحنان. إنّ هذا الموقف يدعوك إلى أنْ تثِق بحنان قلب الله وتُقبل على قبول سرِّ المصالحة كلَّما سقطت في الخطيئة عن ضَعفٍ أو طيشٍ أو تعمُّد.**

ولا تظنَّ نفسك أفضل من الآخرين مهما اطَّلعت عليه من عيوبٍ تشوِّه حياتهم الروحيَّة، ولا تحتقرْ أحداً كما احتقر الابن الأكبر أخاه-بل عاملِ الجميع بمحبَّة أخويَّة صافية.